نقد النسيب عند النقاد القدامى

د. أبو العيد سالم مسعود الحراري
قسم اللغة العربية – كلية اللغات - جامعة الفاتح

النسيب عند قدامة بن جعفر هو : ((ذكر خلق النساء وأخلاقهن وتصرف أحوال الهوى معهن)) [1] غير أن ابن الأثير الحلبي نقل عن بعض العلماء قولهم : ((النسيب معنى مركب من ثلاثة أمور أحدها حال المرأة نفسها من خُلق وخَلق وقرب وبعد ، والثاني حال الناسب بها من وله وقلق وعشق وجزع ووصل وفراق والثالث : الأحوال المشتركة بينه وبينها من هجره لها وتطلعه إليها ، ومواصلته وقطيعتها ، ومن أحوال جرت بينهما)) [2].

أما الغزل عند قدامة ((فهو التصابي والاستشهار بموادات النساء ويقال في الإنسان أنه غزل إذا كان متشكلاً بالصورة التي تليق بالنساء وتجانس موافقاتهن ، لحاجته بالوجه الذي يجذبهن إلى أن يملن إليه والذي يميلهن إليه هو الشمائل الحلوة ، والمعاطف الظريفة والحركات اللطيفة والكلام المستعذب والمزاج المستغرب ، ويقال لمن يتعاطى هذا المذهب من الرجال والنساء متشاج ، وإنما هو متفاعل من الشجى ، أي متشبه بمن قد شجاه الحب)) [3].

أما ابن الأثير الحلبي، فقد فرّق بين الغزل والنسيب ، فقال : ((إنَّ الغزل معنى إذا افتقده الإنسان في الصبوة إلى النساء نسب بهن من أجله ، فكأنَّ النسيب هو ذكر الغزل والغزل هو التصابي والاشتهار بالمحبة ، ويقال فلانٌ غزل فلان إذا كان متشكلاً

---

[1] - نقد الشعر ، قدامة بن جعفر ، تحق : محمد عبد المنعم خفاجي ، ص (134) ، دار الكتب العلمية - بيروت ، (د. ت .ط) .

[2] - جوهر الكنز ، ابن الأثير الحلبي ، تحق : محمد زغلول سلام ، ص (451) ، م : شركة الإسكندرية للطباعة والنشر . (د. ت . ط).

[3] - نقد الشعر ، ص (134) .

بالصبوة التي تليق بالنساء ، وقيل الغزل هو الأفعال والأقوال الجارية بين المحب والمحبوب والنسيب ذكر تلك الأحوال وقيل مغازلة النساء محادثتهن ومراودتهن)) [4] .

وبيَّن ابن رشيق القيرواني أن النسيب والتغزل والتشبيب كلها كلمات بمعنى واحد وأما الغزل عنده فهو : ((إلف النساء ، والتخلق بما يوافقهن ... فمن جعله بمعنى التغزل فقد أخطأ ، وقد نبّه على ذلك قدامة بن جعفر في كتابه نقد الشعر)) [5] .

غير أننا لا نجد فرقاً في الاستعمال اللغوي بين النسيب والتشبيب والغزل ، ففي القاموس المحيط : التشبيب : النسيب بالنساء . ونسب بالمرأة : شبب بها في الشعر . ومغازلة النساء : محادثتهن ، والاسم الغزل [6] .

وذُكِرت هذه الكلمات بمعنى واحد على ألسنة بعض الشعراء، ومن أمثلة ذلك قول إياس بن سهم الهذلي :

نسبنا بليلي ، فانبعثت تعيبها ... أضل من الحجام أو ساق مغزل [7]

وقال عمر بن أبي ربيعة :

فبتلك أهذي ما حييت صبابة ... وبها الحياة أشب الأشعارا [8]

كذلك نجد أن كثيراً من النقاد لا يفرقون بين النسيب والتشبيب والغزل ، ومن بين هؤلاء النقاد عبد الله بن قتيبة ، فقد كان يسمّي شعر عمر بن أبي ربيعة في النساء تشبيباً حيث يقول : ((وكان عمر...يتعرض للنساء الحواج، ويتشبب بهن ، وكان يشبب بسكينة ، وشبب ببنت عبد الملك بن مروان)) [9] .

وهذا ابن سلاّم الجمحي نجده استعمل (التشبيب) مكان (الغزل) حيث يقول في موازنته بين ابن قيس الرقيّات وعمر بن أبي ربيعة : ((كان عبد الله بن قيس الرقيات)) أشد قريش أسر شعر عمر بن أبي ربيعة وكان عمر يصرّح بالغزل ولا يهجو ولا يمدح

---

[4] ـ جوهر الكنز ، ص (252) .

[5] ـ العمدة ، ابن رشيق القيرواني ، تحق : محمد محي الدين عبد الحميد ، ج (2) ، ص (117) ، ط (الثالثة) ، م : السعادة بمصر ، سنة 1963 م .

[6] ـ القاموس المحيط ، (مادة نسب) .

[7] ـ أساس البلاغة (مادة غزل) . ج (5) المصدر السابق (مادة نسب) .

[8] ـ المصدر السابق (مادة شبب) .

[9] ـ الشعر والشعراء ، عبد الله بن قتيبة ، ج (2) ، ص (458)، م : دار الثقافة ، بيروت (د.ت.ط) .

وكان عبد الله يشـــيب ولا يصـــــرّح ولم يكن له معقود شعر وغزل كغزل عمر .....)) [10].

وذكر قدامة بن جعفر أنّه ينبغي أنّ تتوفر في النسيب الجيد شروطاً وهي أنْ يكثر الناسب فيه الأدلة على الصبابة والتهالك للمحبوبة ، كما ينبغي أنْ يظهر فيه الدلائل على الإفراط والغلو في الوجد واللوعة ، ويكون خالياً من علامات الشدة والخشونة والإباء والعزّ.[11] وهذا ما أكدّه أبو هلال إذ يقول : ((وينبغي أنْ يكون التشبيب دالاً على شدة الصبابة ، وإفراط الوجد والتهالك في الصبوة ، ويكون بريًّا من دلائل الخشونة والجلادة وأمارات الإباء والعزّة ....)) [12] وفي هذا الصدد يقول ابن رشيق القيرواني : ((حق النسيب أن يكون حلو الألفاظ رسلها ، قريب المعاني سهلها ، غير كزٍّ ولا غامض ، وأن يختار له من الكلام ما كان ظاهر المعنى ، ليّن الإيثار ، رطب المكسر ، شفّاف الجوهر ، يطرب الحزين ، ويستخفّ الرصين)) [13].

وينبغي أنْ ننبه إلى أنه أول من أشار إلى أنّ الشاعر ينبغي عليه أنْ يذكر في شعره أدلة على التهالك في الصبابة ، وأفراط الوجد هو أبو تمام ورد ذلك في وصيته للبحتري حيث يقول : (فإنْ أردت التشبيب فاجعل اللفظ رقيقاً والمعنى رشيقاً ، وأكثر فيه من بيان الصبابة ، وتوجع الكآبة ، وقلق الأشواق ولوعة الفراق)) [14].

ومما يرتبط بعاطفة الحب التذكر لمعاهد الحب والتشوق إليها ، ووصفها ، والحديث عنها ، ويعدون الشاعر مجدًّا إذا أحسن التعبيرعن ذلك ، يقول قدامة : ((وقد يدخل في التشبيب التشويق لمعاهد الأحبة بالرياح الهابة ، والبروق اللامعة الحمائم الهاتفة

---

10 ـ طبقات الشعراء ، محمد بن سلام الجحمي ، تحق : اللجنة الجامعية لنشر التراث العربي ، ص (137) ، م: دار النهضة العربية للطباعة والنشر ، بيروت ، (د.ت.ط).

11 ـ نقد الشعر ، ص (134) .

12 ـ الصناعتين ، أبو هلال العسكري ، تحق : علي محمد البجاوي ، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، ص (129)، ط (الأولى) م : دار إحياء الكتب العربية ، سنة 1958م.

13 ـ العمدة ، ج (2) ، ص (116).

14 ـ زهر الآداب ، أبو إسحاق الحصري ، تحق : علي محمد البجاوي ، ج (1) ، ص (101) ، م : دار إحياء الكتب العربية (د.ت.ط) .

والخيالات الطائفة وآثار الديار العافية وإشخاص الأطلال الدائرة ، وجميع ذلك إذا احتيج أن تكون فيه أدلة على عظيم الحسرة ومن مضي الأسف والمنازعة)) .[15]

وعبارة قدامة هذه تدل على نوع خاص من الهوى والحب هو الذي يعرف بالحب العذري ، ووصفه هو وصف النسيب العذري الذي يفيض بالعاطفة المشبوبة ، وآثار الكبت والحرمان وفرحة اللقاء وآلام الفراق وأصحابه من الشعراء اختصوا به من بين سائر أغراض الشعر ، وشعرهم تغلب عليه وحدة الموضوع ، أي أنهم يقصرون قصائدهم أو أكثرها على النسيب وهذا اللون من النسيب لا يعنى بالجسد وأوصافة ولا المطالب الجنسية وإنما يعنى بوصف الصبابة والتوله والكمد في عفة وسمو أكثر عنايته بشيء أخر .

وما ذكره قدامة كرره أبو هلال وأكد عليه حيث يقول : ((ويستجاد التشبيب أيضاً إذا تضمن ذكر الشوق والتذكر لمعاهد الأحبة بهبوب الرياح ولمع البروق ، وما يجري مجراهما من ذكر الديار والآثار)).[16]

فمن أجود ما قيل في الديار كما يرى قدامة بن جعفر قول محمد بن عبيد الأزدي :

فلم تدع الأرواح والماء والبلى من الدار إلا ما يشوق ويشغف

ذكر قدامة أنّه لم يسمع في حياته بمثل هذا البيت في إيجازه واحتوائه على شدة الشوق ومكمد الوجد : [17] .

أبو هلال العسكري ساند قدامة في هذا الرأي ،[18]. فهذا في الواقع تعبير عن إحساسات صادقة يشعر بها المحب فمن الطبيعي أنْ يقف المحب على ديار من يهواه ، وأنْ يستعيد ذكريات عزيزة عنده ، وأنْ يحن له ، ويشتاق إليه ، وأنْ يأسف عليه إذا اندثر ويتأمله حزيناً مشغوفاً ويسأله عمن فارقوه ، وارتحلوا ويتمنى أن لو بلى هو ، وتبقى ديار الحبيب آهلة مألوفة .

ومن أمثلة النسيب بذكر البروق التي أوردها أبو هلال الأزدي :

---

[15] ـ نقد الشعر ، ص (134 ، 135).

[16] ـ الصناعتين ، ص (129).

[17] ـ نقد الشعر ، ص (135) .

[18] ـ الصناعتين ، ص (129).

سرى البرق من نحو الحجاز فشاقني وكل حجازيّ له البرق شائقُ
بـــدا مثل نبض العرق والبعد دونه وأكناف لبنـى دوننا والأسالقُ
نهاري بأشراف الثّلاع مـــوكـــل وليلي إذا ما جنني الليل آرقُ
فواكبدي مـــما أُلاقي من الـــهوى إذا جنَّ إلـف أو تألق بـارقُ [19]

من الطبيعي لمن ملأ الحب قلبه أن يذكر أحبابه الذين فارقهم ، إذا لمع البرق من ناحيتهم ، فيضطرب قلبه شوقاً إلى من فارقهم .

وفي طرد الخيال والمجاراة في المحبة أورد أبن رشيق القيرواني قول طرفة بن العبد :

فقل لخيال الحنظلية ينقلب إليها فإني واصلٌ حبل من وصل

بيّن ابن رشيق أنَّ أول من طرق هذا الباب هو طرفة بن العبد . [20]

وقال لبيد في مثل ذلك :

فاقطع لبانة من تعرَّض وصله ولشرٌّ واصل خلّةٍ صرَّامها

وضّح ابن رشيق قول الشاعر حيث يقول : (الشاعر) : اقطع المزار ممن تعرض وصلة للقطيعة ـ ويقال : تعرض الشيء ، إذا فسد ، حكاه الخليل ـ فإن شرَّ من وصلك من قطعك بلا ذنب)) . [21]

وأستحسن الآمدي تشبيه أبي تمام للنساء بالظباءَ والبقر :

نوارٌ في صواحبها نوارٌ كما فاجاك سرب أو سوار

((نوار : اسم امرأة . في صواحبها نوار : أي نفور ، أي هي نفور في صواحبها ، أي مع صواحبها ، فجعلهن جميعاً نوافر)) [22] .

واستوقف النقاد قول أبي الشيص في الغزل :

وقف الهوى بي حيث أنت فليس لي متأخـــر عـــنه ولا مـــتقـــــدم
أجـد الملامة فـي هواكِ لـــذيذة حباً لذكـــــرك فليلمني اللّـــــوم

---

19 ـ المصدر السابق ، ص (130).

20 ـ العمدة ، ج (2) ، ص (125) .

21 ـ المصدر نفسه ، ص (125 ـ 126).

22 ـ الموازنة ، أبو القاسم الآمدي ، تحق : أحمد صقر ، ج (2) ، ص (59) ، ط (الثانية) م : دار المعارف بمصر ، سنة 1972 م .

أشبهتِ أعدائي فصـــرتُ أحبهم إذ كان حظّي منكِ حظّي منهـم
وأهنتني فأهـنت نفـسي صاغراً ما من يهـون عليكِ ممن أكـــرم

ذكر أبو هلال أنّ هـذه الأبيـات بلغـت الغايـة في الـصبابة والـضعف والتـهالك والانقياد للمحبوب[23] . وهو رأي ابن قتيبة [24] . وأبي نواس.[25]

وعلّق عليها أسامة بن منقذ بقوله : ((وأحسن أبو الشيص وزاد على الإحسان في قوله ، لما مدح اللّوم حرصاً على سماع ذكر المحبوب ...))[26]

ويقول عنها أبو بكر الأصفهاني : ((ولو لم يقل أبو الشيص في عمره ، بـل لـو لم يقل أحد من أهل عصره غير هذه الأربعة الأبيات لكانوا غير مقصرين)) .[27]

كما أطراها أيضاً أحمد بن القاسم أحد رجـال الخليفـة (المـأمون) ، فقـد ذكـر أنّ صاحبها يعد أشعر شعراء زمانه ، كما روى البيهقي .[28]

ولعمري أنّ عمرو بن أحمر الباهلي قد أوجـز وأبـان عـن تـشوق وعظـم تحـسر بقوله :

معارف تلوى بالفؤاد وإنْ تقل لها بيِّني لي حاجة لم تكلـــــم

((وأما قوله : (لم تكلم) فهو تجاهل العائم ، وتدله الواله ، فإنّه قـد يحتـاج إلى أنْ يكون في شعر الوامق دليل على أنه للتحنن))[29] وهذا ما يعتقده أيضا أبو هلال إذ يـرى أن التشبيب ينبغي أن يكون دالا على التحسر وشدة الأسف والحنين للمحبوب.[30]

---

23 ـ الصناعتين ، ص (129).

24 ـ الشعر والشعراء ، ج (2) ،ص (721 ، 722).

25 ـ طبقات الشعراء ، ابن المعتز ، تحق : عبد السلام أحمد فراج ، ص (74) ، ط (الثانية) ، م : دار المعارف بمصر ، سنة 1968م.

26 ـ البديع في نقد الشعر ، تحق : أحمد أحمد بدوي ، وحامد عبد المجيد م / مصطفى البابي الحلبي ، ص (159) (د.ت.ط) .

27 ـ الزهرة ، أبو بكر الأصفهاني ، تحق : إبراهيم السامرائي ، ج (1) ، ص (60) ، ط (الثانية) م : مكتبة المنار ، الأردن ، سنة 1985 م .

28 ـ المحاسن والمساوئ ، إبراهيم بن محمد البيهقي ، ج (1) : ص (410) ، م : دار صادر بيروت ، سنة 1970 م .

29 ـ نقد الشعر ، ص (135).

30 ـ الصناعتين ، ص (130).

ويذكر ابن رشيق القيرواني أنَّ من مختار ما قيل في غرض النسيب قول المرار العدوي :

وهي هيفاءٌ هضيم كشحها ... فخمة حيث يشدُّ المؤتزر
صلتة الخدِّ طويلَ جيدها ... ضخمة الثَّدي ولَّما ينكسر
يضرب السبعون في خلخالها ... فإذا ما أكرهتة ينكسر
لا تمسُّ الأرضَ إلا دونها ... على بلاط الأرض ثوب منعفر
تطأ الخزَّ ولا تكرمه ... وتطيل الذيل منه وتجر
ثم تنهدُّ على أنماطها ... مثل ما مال كثيب منقعر
عبق العنبر والمسك بها ... فهي صفراء كعرجون التمر
أملح الناس إذا جرَّدتها ... غير سمطين عليها وسور

((قال عبد الكريم : هذه أملح وأشرف ما وقع فيه الوصف ، وهي أشبه بنساء الملوك))[31] ومما يندرج في هذا الباب أيضا قول البحتري :

إذا نضون شفوف الرَّبط آونةً ... قشرنَ عن لؤلؤ البحرين أصدافا

علَّق الآمدي على بيت الغزل هذا بقوله : ((فشبَّه أجسامهن في وقت تجردهن من الثياب ، باللؤلؤ في الوقت الذي يقشر عنه الصدف)).[32]

ساند ابن رشيق القيرواني الآمدي الرأي فقد أعدَّ البيت من جيد الغزل.[33]

وقول ابن مطير وهو يتحسر ويتشوق ويحن ويأسف على المحبوب :

وكنت أذود العين أنَّ ترد البكا ... فقد وردت ما كنت عنه أذودها
خليليَّ ما في العيش عيب لو أنَّنا ... وجدنا لأيَّام الحِمى من يعيدها

أوضح أبو هلال العسكري أنَّ بيتي ابن مطَير يحتويان على تحسر شديد وحنين مفرط للأحبة .[34]

---

31 ـ العمدة ، ج (2) ، ص (118) .
32 ـ الموازنة ، ج (2) ، ص (87).
33 ـ العمدة ، ج (2) ، ص (119).
34 ـ الصناعتين ، ص (130).

وقول الشاعر منطلق من حب الناس للنسيب وتعلقهم به ، وقد علل ابن قتيبة لجوء الشعراء إلى ذلك ، بقوله : ((لأنَّ التشبيب قريب من النفوس ، لائط بالقلوب ، لما قد جعل الله في تركيب العباد من محبة الغزل ، وإلف النساء ، فليس يكاد أحد يخلو من أنْ يكون متعلقاً منه بسبب وضارباً فيه بسهم حلال أو حرام)) .[35]

ولأبي تمام أبيات في الغزل يضرب بها المثل ، منها قوله :

نقل فؤادك حيث شئت من الهوى ما الحـــب إلا للحبيب الأول
كم منزل في الأرض يألفـه الفتى وحنينه أبـــداً لأول منزل [36]

وزعم ابن رشيق القيرواني أنه ليس لأبي تمام غزل جيد ، وعبر عن رأيه هذا في قوله : ((ولم يكن لأبي تمام حلاوة توجب له حسن الغزل ، وإنما يقع له من ذلك التافه اليسير في خلال القصائد ، مثل قوله :

بت أرعى الخدود حتى إذا ما فارقوني بقيت أرعى النُّجوما

وقوله أول قصيدة :

أرامة كنتِ مألف كلَّ ريـم لو استمعتِ بالأمس المقيـم
أدارَ البؤس ، حَسَّنكِ التصابي إليَّ فصرتِ جنَّات النعيـم
ومما صرَّم البرحـــاءَ أنـي شكوت مما شكوت إلى رحيم)) .[37]

والواقع أنَّ ابن رشيق تحامل على أبي تمام في رأية هذا ، وقد خالف بذلك آراء الكثير من النقاد الآخرين الذين يرون أنَّ لأبي تمام قصائد بالغة الجودة في الغزل خلافا لمن يزعم عكس ذلك ، وقد أُستشهد على جيد غزل أبي تمام بعدة أبيات منها قوله :

أنت في حلٍّ فـزدني سـقماً أفنِ صبري وأجمل الدمع دما
وارضَ لي الموت بهجريك فإن ألِمتْ نفـسي فزدها ألمـا
محنة العاشق ذلٌّ في الهـوى وإذا استودع سـرًّا كتمـا

---

35 ـ الشعر والشعراء ، ج (1) ، ص (20 ، 21).

36 ـ ديوان أبي تمام ، الخطيب التبريزي ، تحق : محمد عبده عزام ، ج (4) ، ص (253) ، ط (الثالثة) ، م : دار المعارف بمصر ، سنة 1970 م.

37 ـ العمدة ، ج (2) ، ص (119).

ليس منّا من شـــكا علتـــه من شكـــا ظلم حبيب ظلَمـــا

عقَّب ابن الأثير على هـذه الأبيـات حيـث يقـول متسائلاً: ((وهـل لكـثيرٌ مـن المتقدمين ... أرق من هذه الأبيات)).[38]

ومثَّل أبو هلال العسكري للغزل الذي يحتوي على توجع وألم بقول الـصمة بـن عبد الله :

وليست عشيات الحمى برواجـع إليك ولكن خـلِّ عينيك تدمعا
وأذكر أيـــام الحِـــمى ثم أنثني على كبدي من خشية أنْ تصدعا[39]

كما تمثَّل ابن الأثير العلوي بالبيت الثاني من هذين البيتين .[40]

ومثل قول الآخر كما يرى أبو هلال :

يقر بعيني أنْ أرى رمـــلة الغضـــا إذا ما بدت يوماً لعيني قلالُـــها
ولستُ وإن أحببتُ من يسكن الغضا بأوَّل راج حاجـــة لا ينالـها [41]

أورد ابن عبد ربه أنَّ الخليفة الرشيد أشاد برقة (هذه) الأبيات ، فقال : ((له عبتر (المغنى) يا أمير المؤمنين أنَّ هذا الشعر مدني رقيق قد غُذِي بماء العقيـق حـتى رق وصفا فصار أصفى من الهواء ....)) .[42]

وبيَّن أبو هلال أنَّه ينبغي أن يحتوي النسيب على مـا يـدل علـى رقـة الـشاعر في الحب ، كما ينبغي أيضا ألا يظهر صاحبه الإباء والتبرم مـن الحـب ، كقـول أبي صـخر الهذلي :

فيا حبها زدني جـــوًى كل ليلة ويا سلوة الأيام موعدك الحشر[43]

---

38 ـ الاستدراك ، تحق : محمد حفني شرف ، ص (31) ، م : الرسالة ، سنة 1958 م .

39 ـ الصناعتين ، ص (130) .

40 ـ المثل السائر ، ابن الأثير الحلبي ، تحـق : أحمـد الحـوفي وبـدوي طبانـة ، ج (2) ، ص 164) ، ط (الأولى) ، م : مكتبة نهضة مصر ، سنة 1960 م .

41 ـ الصناعتين ، ص (130).

42 ـ العقد الفريد ، ابن عبد ربه ، ج (3) ، ص (200) ، م: دار مكتبة الهلال (د . ت. ط).

43 ـ الصناعتين ، ص (130 ، 131).

ذكر قدامة بن جعفر أنَّ من أراد أن يتعلق بمودة فعليه أن ينسب بمثل قصيدة أبي صخر ، والتي من ضمنها هذا البيت.[44] وهذا الرأي نجده أيضاً عند أسامة بن منقذ.[45] والحاتمي كما روى عنه ابن رشيق القيرواني .[46]

مما يستجاد في هذا المعنى أيضا قول زهير بن أبي سلمى كما أوضح أبو هلال :

لقد باليتَ مطعن أمّ أوفى ولكن أمّ أوفى لا تبالي[47]

فقد أظهر زهير لأم أوفى الجلد والصبر مع عدم مبالاتها بما يفعل .

ويقول قدامة : ((ومما أختم به القول أنَّ المحسن من الشعراء فيه هو الذي يصف من أحوال ما يجده ما يعلم به كل ذي وجد حاضر أو دائر أنّه يجد أو قد وجد مثله، حتى يكون الشاعر فضيلة الشعر)) .

وقد ضرب قدامة على ذلك مثلا بقول أبي صخر الهذلي يصف ما يرى أنَّ كل متعلق بمودة يجد مثله :

أما والذي أبكى وأضحك والذي أمات وأحيا والذي أمره الأمر
لقد كنت آتيها وفي النفس هجرها بتاتاً لأخرى الدّهر ما طلع الفجر
فما هو إلا أنْ أراها فجاءةً فأبهت لا عرفٌ لديَّ ولا نكرُ
وأنسى الذي قد كنت فيه هجرتها كما تنسّى لبَّ شاربه الخمر

ويذكر هذا الناقد أنَّ في هذه القصيدة موجع آخر مما يدل على إفراد الشاعر المحبة ، وقد جاء هذا على سجية الشاعر ، فيقول :

ويمنعني من بعد إنكار ظلمها إذا ظلمت يوما وإن كان لي عذر
مخافة أني قد عرفت لأن بدا لي الهجر منها ما على هجرها صبر
وإني لا أدري إذا النفس أشرفت على هجرها ما يفعلنَّ بي الهجر[48]

---

44 ـ نقد الشعر ، ص (137) .
45 ـ البديع في نقد الشعر ، ص (171) .
46 ـ العمدة ، ج (2) ، ص (121).
47 ـ الصناعتين ، ص (115).
48 ـ نقد الشعر ، ص (137).

وقد أشاد بهذه الأبيات عدد كبير من النقاد ، ومن بينهم عبد الله بن قتيبة ، فقد ذكر أنها أحسن ما قيل في غرض الغزل .[49]

وأكدّ هذا الرأي كذلك أبوعلى القالي.[50] وأما ابن منقذ ، فقد بيَّن أنها من مليح الغزل .[51] وأما الحاتمي فقد ذكر أنَّ أغزل بيت قالته العرب هو أحد أبيات هذه القصيدة وهو قوله :

فيا حبها زدني جوًى كل ليلة ويا سلوة الأيام موعدك الحشر[52]

مما سبق يتضح أنَّ أبا صخر صور صاحبته ومشاعره نحوها تصويراً مؤثراً والشاعر أسقمه الحب وحمله ما يئوده ويرهقه ، ويريد أن يقنع نفسه أو يقنع سامعه بأنه يبكي ويضحك ويموت ويحيى وأمره لا راد له وكل هذه الصفات لها صلة بالمحب باكٍ حينا إذا هجر ضاحكاً حينًا آخر إذا وصله الحبيب . ميت إذا بعد عمن يحب حتى إذا دنا منه ، وهو في كل ذلك مسلم لأمر الله ، لا يستطيع أن يعارض قضاءه المحتوم .

أنسب بيت قالته العرب :

بعد أنْ تطرقنا للتشبيب الجيد وضربنا أمثلة عديدة له نأتي الآن لذكر ما يراه النقاد من أنسب أو أغزل بيت عند النقاد العرب القدامى ، وقد اختلف النقاد في اختيار أجود بيت قاله شاعر في غرض الغزل :

روى ابن رشيق عن الأصمعي عن أبي عمرو بن العلاء ما يراه وهو أنَّ أغزل بيت قالته العرب قول عمر بن أبي ربيعة :

فتضاحكن وقد قلن لها حسن في كل عين من تود

والأصمعي يرى أن أغزل بيت قالته العرب هو قول امرئ القيس:

وما ذرفت عيناكِ إلا لتضربي بسهميك في أعشار قلب مقتل[53]

---

[49] ـ عيون الأخبار ، عبد الله ابن قتيبة ، ج (4) ، ص (138)، م : المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر ، سنة 1963م.

[50] ـ الأمالي ، أبو علي القالي ، ج (1) ، ص (149) ، م : دار الآفاق الجديدة ، بيروت (د.ت .ط) .

[51] ـ لباب الألباب : أسامة بن منقذ ، تحق : أحمد محمود شاكر ، ص (412) ،م : الرحمانية بمصر ، سنة 1953 م .

[52] ـ العمدة ، ج (2) ، ص (121).

[53] ـ العمدة ، ج (2) ، ص (120) .

ساند أبن قتيبة الأصمعي الرأي إذ يرى أنَّ هذا البيت أرق بيت قالته العرب[54] .

ويرى الباقلاني أنَّ هذا البيت يعد من محاسن قصيدة امرئ القيس وبديع من بدائعها .[55]

أما الوليد بن يزيد بن عبد الملك فيذكر أنَّ أغزل بيت قالته العرب هو بيت جميل ابن معمر :

لكل حديث بينهنَّ بشاشة وكل قتيل عندهنَّ شهيد[56]

وهذا من محاسن شعر جميل كما ذكر الحاتمي[57] ويقول ابن رشيق:

((وفضلته بهذا البيت سكينة بنت الحسين بن على رضوان الله عليهم ، وأثابته به دون جماعة من حضر من الشعراء)) .[58]

ويرى بعض الناس أن أجود بيت في الغزل هو قول الأحوص :

إذا قلتُ إني مشتفٍ بلقائها وحُمَّ التلاقي بيننا زادني سقما[59]

أشاد الخليفة العباسي المهدي وعدَّه أغزل بيت حضري ، وقال : ((أحسن والله)).[60]

وذكر ابن رشيق أنَّ بعض النقاد يرون انَّ أغزل بيت قاله جرير :

فلمَّا التقى الحيَّانِ ألقيت العصى ومات الهوى لما أصيبت مقاتله[61]

---

54 ـ الشعر والشعراء ، ج (1) ، ص (56).

55 ـ إعجاز القرآن ، أبو بكر الباقلاني ، تحق : السيد أحمد صقر ، ص (170) ، ط (الخامسة) م : دار المعارف (د .ت.ط) .

56 ـ العمدة ، ج (2) ، ص (121).

57 ـ الرسالة الموضحة ، أبو علي الحسن الحاتمي ، تحقيق : محمد يونس نجم ، ص (51) ، م : دار صادر ودار بيروت ، سنة 1965م.

58 ـ العمدة ، ج (2) ،ص (121).

59 ـ المصدر السابق ، ج (2) ، ص (121) .

60 ـ الأغاني ،أبو الفرج الأصفهاني ، ج (4) ، ص (57) ، م : عز الدين ، (د .ت .ط) .

61 ـ العمدة ، ج (2) ، ص (121).

روى أبو الفرج الأصفهاني عن أبي عبد الله محمد بن سلاَّم قوله : ((وبيت النسيب عندي : فلما التقى الجمعان .... البيت)).[62]

ويعتقد بعض النقاد أنَّ أغزل بيت هو قول جميل :

يموت الهوى مني إذا ما لقيتها ويحيا إذا فارقتها فيعـــــود

يقول ابن رشيق : ((والأحوص عندهم أغزلهم في هذه الأبيات الثلاثة ، لزيادته سقما إذا التقى بالمحبوب)) [63] .

وأغزل بيت قالته العرب عند الحاتمي كما ذكر ابن رشيق هو قول أبي صخر الهذلي :

فيا حبها زدني جوى كل ليلة ويا سلوة الأيام موعدك الحشر[64]

وقد ضرب بهذا البيت أبو هلال العسكري مثلاً للشاعر الذي لا يظهر التبرم بل يظهر الرغبة في الحب والشوق.[65] وروى أبو الفرج أنَّ قصيدة أبي صخر والتي منها هذا البيت تعد من مختار شعر شعراء هذيل وأملحها وأولها.[66] وذكر أيضا أنَّ المغني إبراهيم ابن إسحاق الموصلي تغنى بهذا البيت إعجاباً به .[67]

((وقال أبو عبيدة : ما حفظت شعراً لمحدث ، إلا قول أبي نواس:

كأنَّ ثيـــابه أطلـعْـنَ من إزاره قمـــــــرا
يزيـدك وجهـه حُسناً إذا ما زدته نظـــــرا
بعين خالـــط التفتير من أجفانها الحـــــورا
وخـدٌّ سابريٌّ لـــــو تصوَّبَ ماؤه قطـرَا))[68]

---

62 ـ الأغاني ، ج (7) ، ص (37).
63 ـ العمدة ، ج (2) ، ص (121) .
64 ـ المصدر السابق ، ج ، (2) ، ص (121).
65 ـ الصناعتين ، ص (131).
66 ـ الأغاني ، ج (11) ، ص (97).
67 ـ المصدر السابق ، ص (11) ، ص (98).
68 ـ العمدة ، ج (2) ، ص (121).

وضّح البابرتي البيت الأول فقال : ((المراد : الله يزيد في وجهه حسناً كلما زدت نظراً)) [69] كما تمثّل بهذا البيت أيضاً القاضي الجرجاني .[70]

عيوب النسيب :

إذا لم يلتزم الشاعر بالمقاييس والشروط التي وضعها النقاد عدّوا نسيبه خطأ .

فعيب مثلا قول إسحاق الأعرج مولى عبد العزيز بن مروان :

فلما بدا لي ما راعني نزعت نزوع الأبي الكريم

علّق قدامة على هذا البيت حيث يقول : ((بلغني أنّ أبا السائب المخزومي لما أُنشِد هذا البيت قال : قبّحه الله ، لاوالله ما أحببتها ساعة قط)) .[71]

وهذا ما رواه أيضا أبو هلال ويضيف : ((أنّ التجلد من العاشق مذموم)) .[72]

أما ابن رشيق فعقّب على هذا المعنى إذ يقول : ((وكل مالايليق بالمحبوب فهو مكروه في باب النسيب)) .[73]

وما ذكره الشاعر جاء مخالفاً لما بيّنه قدامة وأبو هلال ، وهو أنّ أحد الشروط التي ينبغي مراعاتها في النسيب الجيد ألّايظهر فيه صاحبه ما يدل على الخشونة والإباء والجلد ، وإنما ينبغي عليه أن يظهر الذل والخشوع والوجد والوله واللوعة للمحبوب .

غير أنّ أحمد أحمد بدوي علق على بيت إسحاق الأعرج ، فقال : ((ولكن نظرة البيت ترينا مدى مغالاة أصحاب مذهب التهالك ، إذ يطلبون من الشاعر أن يظل وفيّا في حبه ، بعد أن رأى ما رابه في الحب)) .[74]

---

69 ـ شرح التلخيص ، أكمل الدين البابرتي ، تحق : محمد مصطفى صوفية ، ص (188) ، ط (الأولى) ، م : المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان ،طرابلس ، سنة 1983م.

70 ـ الوساطة ، القاضي الجرجاني ، تحق : محمد أبو الفضل إبراهيم وعلي محمد البجاوي ، ص (393)،م : عيسى البابي الحلبي وشركاه (د. ت .ط) .

71 ـ نقد الشعر ، ص (190).

72 ـ الصناعتين ، ص(115).

73 ـ العمدة ، ج (2) ص (126).

74 ـ أسس النقد الأدبي عند العرب ، أحمد أحمد بدوي ، ص (172) ، ط (الثانية) م : نهضة مصر بالفجالة ، سنة 1964م .

ومثله كما يرى أبو هلال أخطأ نصيب في قوله :

فإنْ تصلي أصلك وإن تعودي لهجر بعد وصلك لا أبالي

عقّب عليه بقوله : ((إنَّ التجلد من العاشق مذموم))[75] تطابق رأي أبي هلال مع رأي عقيلة بنت عقيل بن أبي طالب ، فقالت تعنّف الشاعر : ((ويلك أهكذا يقول الفحول؟ والله لو كنت فحلاً ما قلت هذا لها ...)) .[76]

ومن النسيب المستثقل عند قدامة بن جعفر قول عبد الرحمن بن عبد الله القس :

إن تنأ دارك لا أملُ تذكراً وعليك منّي رحمة وسلام[77]

ولم يبين قدامة عن العلة التي بنى عليها استثقال هذا البيت ، وإن كان الظاهر أنَّ ذلك يرجع إلى اللين الذي نزل بالأسلوب إلى حد الابتذال فليس فيه أثر للتخيير وليس عليه رونق كلام الفصحاء .

ومن المستخنث قول هذا الشاعر :

ســـــــلأم ليتَ لساناً تنطقين به قبل الذي ناله من صوته قُطعا

علّق عليه قدامة حيث يقول : ((فما رأيت أغلط مما يدعو على محبوبة بقطع لسانها حيث أجاءت في غنائها له)).[78] وممن عابوا هذا البيت أيضا أبو هلال فهو يرى فيه مثالاً للشعر الجاسي الخشن ؛ لأنَّ هذا الشاعر دعا على محبوبته بقطع لسانها .[79]

أبن سنان الخفاجي عاب كذلك هذا البيت ، فيقول : ((هذا غاية الغلظ والجفاء والمخالفة لعادات أهل الهوى)).[80]

والطريقة المتبعة في الغزل الجيد كما يرى قدامة هي أن يكون رقيقاً لطيفاً دمثاً وهذا يتطلب رقة اللفظ وعذوبته وأنْ يكون اللفظ غير مستكره فإن كان غليظاً جاسياً

---

75 ـ الصناعتين ، ص (115).

76 ـ الموشح ، أبو عبيد الله محمد بن عمران المرزباني ، تحق : جمعية نشر الكتب العربية السلفية ، بمصر ، ص (163) ، (د.ت .ط) .

77 ـ نقد الشعر ، ص (191).

78 ـ المصدر السابق ، ص (191) .

79 ـ الصناعتين ، ص (76).

80 ـ سر الفصاحة ، ابن سنان الخفاجي ، ص (258) ، ط (الأولى) ، م : دار الكتب العلمية ، بيروت ، سنة 1982م.

تسبب في استثقال الغزل ، وقد يحتاج الأمر إلى استعمال ألفاظ تحتوي على خشونة وغلظة في بعض الأحيان كأن يكون في الأمر دلالة على البسالة والشجاعة والبأس والرهبة .[81]

ابن الأثير الحلبي ساند قدامة الرأي ، إذ يقول : ((متعاطي النسيب ينبغي له أن يتوخى من الكلام ما كان حلو الألفاظ سهل المأخذ قريب المعاني ، غير كز ولا غامض ، ظاهر الحسن جيد الرونق ، فإذا استعمل ذلك فقد وفّى الصناعة حقها .....)).[82] وأكّد هذا الرأي كذلك ابن رشيق حيث يقول : ((حق النسيب أن يكون حلو الألفاظ رسلها ، قريب المعاني سهلها ، غير كز ولا غامض ، وأن يختار من الكلام ما كان ظاهر المعنى ، لين الإيثار ، رطب المكسر ، شفاف الجوهر ، يطرب الحزين ، ويستفزّ الرصين)).[83]
ومن الغزل الغليظ : قول الشاعر جنادة كما أورد أبو هلال :

من حبها أتمنى أنّ يلاقني من نحو بلدتها ناع فينعاها
لكي يكون فراق لا لقاء له وتضمر النفس يأساً ثم تسلاها

عقّب على هذين البيتين ، بقوله : ((فإذا تمنى المحب لحبيبته الموت فما عسى أن يتمنى المبغض لبغيضته ؟...))[84] ويقول أبو بكر الأصفهاني عن البيتين : ((وهذا لعمري سرف شديد ، وطريق الاعتذار لقائله بعيد .....))[85]. وأسامة بن منقذ علّق عليهما قائلاً : ((والمعهود تفدية المحب للحبيب . وهذا ضد المقصود)).[86] كذلك نجد مثل هذا الرأي عند أبن طباطبا .[87] ولدى الصفدي[88] .

---

81 ـ نقد الشعر ، ص (191).
82 ـ جوهر الكنز ، ص (451).
83 ـ العمدة ، ج (2) ، ص (116).
84 ـ الصناعتين ، ص (76).
85 ـ الزهرة ، ج (1) ، ص (66).
86 ـ البديع في نقد الشعر ص (173).
87 ـ عيار الشعر ، ص (112).
88 ـ الغيث المنسجم في شرح لامية العجم ، صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي ، لا تحق ، ج (2) ، ص (141) ،م : المطبعة الوطنية ، الإسكندرية ، سنة 1290 هـ.

بيد أنّنا نجد تخريجاً لأبي الفرج الأصفهاني في البيتين إذ رأى أنَّ الشاعر قال بيتيه اللذين دعا فيهما على المرأة ؛ لأنها أصبحت عجوزاً كبيرة السن يضرب أحد لحييها الآخر .[89]

ذكر ابن رشيق أنَّ كثيِّرا عاب على نصَيب قوله :

أهيم بدعدٍ ما حييت فإن أمت فيا ليت شعري مَنْ يهيم بها بعدي

((حتى أنه قال له : كأنك أغتممت لمن يفعل بها بعدك ، وهو لا يكني)).[90]

ذكر أبو هلال أنَّ بعض النقاد قالوا:((أساءَ القول ، أيحزن لمن يهيم بها بعده؟..)).[91] وأورد ابن قتيبة أن الأقيشر قال : ((والله لقد أساء قائل هذا الشعر ، قال عبد المالك : فكيف كنت تقول لو كنت قائله ؟ قال : كنت أقول :

تحبكم نفسي ، حياتي ، فإن أمت أوكل بدعد من يهيم بها بعدي

قال عبد الملك : والله لأنت أسوأ قولاً منه حين توكل بها ! فقال الأقيشر : فكيف كنت تقول يا أمير المؤمنين ؟ قال : كنت أقول :

تحبكم نفسي حياتي فإن أمت فلا صلحتْ هند لذي خلةٍ بعدي

فقال القوم جميعاً أنت والله يا أمير المؤمنين أشعر القوم)).[92]

وروى المرزباني أنَّ سكينة بنت الحسين قبحت نصَيب وقبحت شعره ، لأنه تمنىَ من يعشق محبوبته دعد بعد موته .[93]

واستقبح النقاد قول عمر بن أبي ربيعة :

بينما ينعتني أبصـــــــرنني دون قيد الميل يعدو بي الأغـــر
قالت الكبرى : أتعرفن الفتى ؟ قالت الوسطى : نعم ، هذا عمر

---

89 ـ الأغاني ، ج (4) ، ص (73) .
90 ـ العمدة ، ج (2) ، ص (124).
91 ـ الصناعتين ، ص (114).
92 ـ الشعر والشعراء ، ج (1) ، ص (324).
93 ـ الموشح ، ص (160).

قالت الصغرى ،وقد تيمتها : قد عرفناه ، وهل يخفى القمر ؟!

ذكر ابن رشيق أنَّ الأديب ابن أبي عتيق ردّ على الشاعر غزله هذا حيث قال له : ((أنت لم تنسب بهن ، وإنما نسبت بنفسك ، وإنما كان ينبغي لك أن تقول : قالت لي فقلت لها ، فوضعت خدي فوطئت عليه)).[94] وروى المرزباني أنَّ رجلا قال لعمر: ((والله والله لقد قلت فأحسنت في كثيرمن شعرك ، ولكنك تخطئ الطريق، تنسب بها ثم تدعها وتشبب بنفسك)).[95]

كما عاب عليه أبو هلال قوله :

قالت لها أختها تعاتبها لا تفسدن الطَّواف في عمر

قومي تصدَّى له ليصرنا ثم اغمزيه يا أخت في خفر

قالت لها قد غمزته فأبى ثم أسبكرّت تشتدّ في أثر

علَّق على هذه الأبيات : ((فشبَّب بنفسه ووصفها بالقِحة ، وناقض في حكايته عن صاحبتها ، فذكر نهيها إياه عن إفساد التواف فيه ، ثم أنها قالت لها : قومي انظري)).[96]

وروى المرزباني أن رجلا عاب على عمر أبياته هذه وقال له : ((أردت أن تنسب بها فنسبت بنفسك ، والله لو وصفت بهذا هرَّة أهلك أو قل منزلك كنت قد أسأت صفتها ، أهكذا يقال للمرأة ؟ إنما توصف بالخفر وأنها مطلوبة ممنَّعة ...)) .[97]

وذكر ابن رشيق أن الشاعر كثّير عزة استقبح هذه الأبيات وعاتب صاحبها قائلاً له : ((أهكذا يقال للمرأة ؟؟ إنما توصف بأنها مطلوبة ممتنعة)) .[98]

((قال بعضهم ــ أظنه عبد الكريم ــ : العادة عند العرب أنَّ الشاعر هو المتغزل المتماوت ، وعادة العجم أن يجعلوا المرأة هي الطالبة والراغبة والمخاطبة ، وهذا دليل كرم النَّحيزة في العرب وغيرتها على الحرم)).[99]

---

94 ـ العمدة ، ج (2) ، ص (124).

95 ـ الموشح ، ص (162).

96 ـ الصناعتين ،ص (115).

97 ـ الموشح ، ص (163).

98 ـ العمدة ، ج (2) ،ص (124).

99 ـ المصدر نفسه ، ج (2) ، ص (124).

ومجمل القول أن المتغزل ينبغي أن يغازل النساء بما يحسن من وصفهن ومداعبتهن والشكوى إليهن ، فإنَّ في مفارقته هذه السبيل التي ذكرها النقاد وسلوك الشاعر غير هذه الطريقة ، ووضع الأشياء في غير موضعها يؤدي بالشاعر إلى التقصير في هذا الغرض.